الفصل الأول

النظرية

مفهوم النظرية :

النظرية طائفة من الآراء التي تحاول تفسير الوقائع العلمية أو الظنية أو البحث في المشكلات القائمة على العلاقة بين الشخص والموضوع أو السبب والمسبب. وتعني النظرية في الدراسات الإنسانية التصورات أو الفروض التي توضح الظواهر الاجتماعية والإعلامية والتي تأثرت بالتجارب والأحداث والمذاهب الفكرية والبحوث العلمية التطبيقية . والنظرية عبارة عن مجموعة من المفاهيم والتعريفات والافتراضات التي تعطينا نظرة منظمة لظاهرة ما عن طريق تحديد العلاقات المختلفة بين المتغيرات الخاصة بتلك الظاهرة ،بهدف تفسير تلك الظاهرة والتنبوء بها مستقبلاً.

النظرية (بالإنجليزية Theory) : لها عدد من المعاني المختلفة باختلاف الفرع التي تستخدم به هذه الكلمة. بشكل عام، تكون النظرية نوعا من التفسير لشرح كيفية حدوث ظاهرة طبيعية، بشرط تحقق حدوث هذه الظاهرة وعدم وجود نزاع في حدوثها، تأتي الآن **النظرية** لتشرح آلية حدوث هذه الظواهر وتكون بشكل عام عرضة للصواب والخطأ، لكن التماسك المنطقي والرياضي للنظرية ثم شرحها لأكبر عدد ممكن من النتائج التجريبية يدعم النظرية ويعطيها تأكيدا أكثر فأكثر.

تزداد النظرية صحة عندما تقدم تنبؤات بشأن ظواهر غير مثبتة بعد، ثم تأتي الأرصاد والتجارب بإثباتها،فنظرية النسبية العامة مثلا تنبأت بانحرافات دقيقة في مدار الكوكب عطارد لم تكن مرصودة بعد، وتم التحقق من ذلك بعد ظهور النظرية مما أعطاها مصداقية أكبر.

هناك فرق شاسع بين الاستعمال العلمي لكلمة **نظرية** والاستعمال العام لها. بشكل عام يقصد بكلمة نظرية أي رأي أو فرضية، في هذا المجال لا يتوجب ان تكون النظرية مبنية على حقائق. إما في المجال العلمي تشير النظرية إلى نموذج مقترح لشرح ظاهرة أو ظواهر معينة بإمكانها التنبؤ بأحداث مستقبلية ويمكن نقدها. ينتج من ذلك انه في

المجال العلمي النظرية والحقيقة ليسا شيئين متضادين. مثلاً الحقيقة هي ان الأجسام تسقط إلى مركز الكرة الأرضية، والنظرية التي تشرح سبب هذا السقوط هي الجاذبية.
مثال على ذلك : خطأ نظرية أرسطو (مركزية الأرض) بأن الأرض هي مركز الكون وأن الكواكب والنجوم تدور حول الأرض، وثبوت صحة نظرية فيلاكوس كوبرنيك وسب أن الشمس هي المركز (مركزية الشمس). وتنطلق النظرية من مسلمات أو مبادئ متفق عليها وتكون أساسا لبناء النظرية وما يترتب عليها من نتائج.

1. ماهية النظرية

مدخل (من الدلالات إلى الإشكالية (يدل مفهوم النظرية في التمثل الشائع على الرأي الشخصي، أو التمثلات والأحكام الفردية التي قد يتبناها شخص معين حول قضية ما أو مسألة ما. لذا يشترط أن تكون النظرية مرتبطة بالممارسة والعمل. ومن هذا نستنتج أن مفهوم النظرية في الدلالة الشائعة يحمل بعدا برجمائيا .وفي اللغة العربية، فإن لفظ النظرية مشتق من النظر، الذي يحمل في دلالاته معنى التأمل العقلي. وكلمة Théoria اليونانية تحمل معاني التأمل والملاحظة العقلية. وفي الفرنسية فإن كلمة Théorie تفيد أن النظرية هي بناء (أو نسق (متدرج من الأفكار، يتم فيه الانتقال من المقدمات إلى النتائج .وتكاد الدلالات اللغوية تقترب – إلى حد كبير – من المدلول الفلسفي للنظرية .فهذا ابن رشد يربط النظر بمفهوم الاعتبار. ولما كان الاعتبار – في نظر ابن رشد – هو القياس، فإن النظر العقلي هو أفضل أنواع البرهان لأنه يتم بأفضل أنواع القياس.
أما لالاند Lalande فيعطي للنظرية بعدا فلسفيا يقترب كثيرا من الدلالة المعجمية بالفرنسية. ونستخلص من ذلك أن النظرية تتعارض مع الممارسة، وتتقابل مع المعرفة العامية لأن هذه الأخيرة معرفة إمبريقية)نابعة من التجربة اليومية). وتتعارض أيضا مع المعرفة اليقينية، لأن النظرية بناء فرضي استنتاجي.

وتتعارض أخيرا مع المعرفة الجزئية، لأن النظرية بناء شمولي .من خلال هذه التقابلات، يمكن أن نتمثل الإشكالية الفلسفية التي يحاول هذا الدرس مقاربتها والتي سنعمل على التعبير عنها من خلال التساؤلات التالية · : ما هي نوعية العلاقة بين النظرية والممارسة؟ ·ما هي وظائف النظرية؟ ·من أين تستمد النظرية مبادئها؟ هل تستمدها من الواقع أم أن النظرية إنشاءات حرة؟

2. النظرية والممارسة

إن الفلاسفة اليونان يفصلون بين النظرية والممارسة، حيث يرتبط المفهوم عندهم بالتأمل العقلي المتعالي عن الواقع المادي الحسي. فكلما توغلت النظرية في التجريد؛ كلما حققت – في نظرهم – أبعادها الإبستيمية =)المعرفية). وذلك يرجع إلى طبيعة المجتمع اليوناني الذي كان فيه العمل اليدوي مستهجنا لارتباطه بالعبيد. فكان شعارفلاسفة اليونان هو "المعرفة من أجل المعرفة". وفي مقابل ذلك نجد فلسفات حديثة تربط النظرية بالممارسة. وفي هذا النهج تسير الماركسية لأن ماركس يؤمن بضرورة ربط النظرية بالبراكسيس =) la Praxisالفعل) وكل تفكير متعال عن الواقع تفكير ميتافزيقي. هكذا أراد ماركس لفلسفته أن تكون ممارسة اقتصادية وأيديولوجية. وفي هذا السياق يقول ماركس :"لقد اهتم الفلاسفة حتى الآن بتفسير الوجود.. وآن الأوان أن نعمل على تغييره لا تفسيره ."أما مالينوفسكي Malinowskiفيرى أن ما من عمل يدوي، ولو كان بسيطا، فإنه يحمل بين ثناياه تفكيرا نظريا ذي أبعاد علمية بيداغوجية (تربوية)، ويهدف إلى تحقيق غايات، ويحمل بصمات الطبيعة الإنسانية الصناعية والفكرية والمدنية .إن الاختلاف حول علاقة النظرية بالممارسة يتطلب منا إبداء رأي حاسم في الموضوع. ومن أجل ذلك نجعل من العلم الحكم والفيصل. لقد كان العلم، يعتبر يقينا لأن كل الإبداعات العلمية تجد لها تطبيقا على أرض الواقع. لكن مع التحولات الإبستيمولوجية التي

عرفها **العلم، تأكد أن كثيرا من النظريات** العلمية غير قابلة للتطبيق (الممارسة) بشكل مباشر، وذلك لا ينتقص من قيمتها أبدا. فالفيزياء – مثلا – التي كانت تحتكم إلى التجربة في كل أحكامها ونتائجها، أصبحت اليوم أنساقا فرضية استنباطية، وأصبحنا نتحدث اليوم عن فيزياء رياضية .انطلاقا من هذا، نستنتج أنه لا تجب مقارنة المعرفة العلمية بالمعرفة العامية. فهذه الأخيرة إمبريقية وبراغمائية، تحتكم إلى الممارسة والمنفعة المباشرة. أما المعرفة العلمية فهي صروح نظرية فرضية-استنباطية، لا يراعى في صدقها إلا بناؤها وتماسكها المنطقيان. لهذا لا يمكن اعتبار الممارسة معيارا ضروريا لتصديق النظرية. هكذا يحق لنا أن نتساءل ما هي وظائف النظرية إذن؟

3. وظائف النظرية

إن النظرية بناء فكري يربط منطلقات بنتائج. فالنظرية العلمية تبنى وتشيد على مجموعة من الفرضيات التي توجه بدورها التجربة العلمية. وتجدر الإشارة إلى أن النظرية تقودها كذلك، مبادئ عقلية منطقية خاصة منها: مبدأ السببية ومبدأ الحتمية. والأول يفيد أن ما من ظاهرة إلا ولها سبب، والثاني يعني أن نفس الأسباب تعطي دائما نفس النتائج. وغالبا ما يتولد عن النتائج ما يصطلح على تسميته بالقانون. والقانون العلمي هو مجموع العلاقات الثابتة بين ظواهر معينة، ويتميز بالخصائص التالية : قيامه على التجربة، قابلية التكرار)لارتكازه على مبدأ الحتمية)، قابلية التعميم، يتيح إمكانية التنبؤ، قابلية الصياغة الرياضية .من هذا المنطلق نستطيع القول : إن القوانين العلمية إذا ما تألفت فيما بينها، فإنها تشكل نظرية علمية متماسكة. وقد تختلف وظائف النظرية باختلاف الأهداف التي توجه القانون العلمي. فقد تكون وظيفة النظرية وصفية إذا كانت القوانين تفيد مجرد الوصف كما هو الحال بالنسبة لقانون كوبرنيك مثلا حينما أكد أن الكواكب تدور حول الشمس دورة إهليلجية (دون أن يتضمن القانون سبب ذلك). وقد تكون

وظيفتها تفسيرية إذا كانت القوانين تهدف إلى تقديم العلاقات السببية التي تؤطر بعض الظواهر كقوانين غاليلي Galilée المفسرة لظاهرة سقوط الأجسام (مثلا لما أثبت أن الهواء هو الذي يفسر اختلاف تسارع الأجسام أثناء السقوط). وحين تهدف النظرية إلى احتضان ظواهر مستقبلية تفسيرا وتحليلا فإن وظيفتها تكون تنبئية. وتجدر الإشارة إلى أن النظرية ذات الوظيفة التفسيرية تكون وظيفتها تنبئية كذلك .إذا كانت الفيزياء الكلاسيكية تقدم إمكانية تصنيف وظائف النظرية، فإن ذلك لا يمكن تعميمه على النظرية العلمية حيث تشكل البيولوجيا والعلوم الإنسانية الاستثناء. وذلك نظرا للاختلاف الحاصل بين المفكرين وهو صراع يرقى أحيانا إلى الاستخفاف بالنتائج التي يصل إليها الآخر. فداخل البيولوجيا نشهد صراعا تقليديا بين المدرسة اللاماركية والمدرسة الداروينية. فإذا كانت اللاماركية – مثلا – تؤكد إمكانية انتقال الخصائص المكتسبة بالوراثة؛ فإن أغست فايزمان A.Weismannيبين أن الخلايا تنقسم إلى خلايا جسمية SOMA وخلايا جرثومية (أو جنسية GERMEN (والبيئة لا تؤثر إلا الخلايا الأولى. ومن ثمة هناك احتمال ضعيف لانتقال الخصائص المكتسبة وراثيا. أما في مجال العلوم الإنسانية، فإن الأمر سيكون أكثر تعقيدا، لأن الظاهرة الإنسانية ظاهرة معقدة ومتغيرة، تدخل في تكوينها اعتبارات وجدانية وأخلاقية ودينية .لذا يصعب إيجاد قوانين علمية دقيقة ومضبوطة. ولما كانت محاولة ربط العلوم الإنسانية بالعلوم الدقيقة أضر بها أكثر مما نفعها – كما يرى مالينوفسكي – أضحت مهمة البحث عن نموذج آخر للعلمية، بالنسبة للعلوم الإنسانية، أمرا ضروريا .يتبين، إذن، أن تحديد الوظيفة العلمية للنظرية قضية لا تتوقف على طبيعة النظرية فقط، بل تتوقف أيضا على طبيعة المناهج المستخدمة والمجالات العلمية التي تبنى فيها النظرية. و من هذا المنطلق نتساءل: ما هي طبيعة العلاقة بين النظرية والواقع؟ .4

النظرية والواقع بما أن النظرية العلمية تسقط كثيرا من تمثلاتها على الواقع، فإن الكثيرين يعتبرون هذا الأخير المحك الحقيقي للنظرية. ومن هذا المنطلق تصبح التجربة العلمية الخطوة الأساسية لبناء النظرية مادامت التجربة هي التي تؤكد أو تكذب الفرضيات. لكن مع التحولات العلمية الحديثة تمت إعادة النظر في علاقة النظرية بالواقع والتجربة. فهذا إنشتاين Einstein يؤكد "أنه لا يمكن استنتاج القاعدة الأكسيومية للفيزياء النظرية انطلاقا من التجربة، إذ يجب أن تكون إبداعا حرا.." فالنظريات العلمية أصبحت لا تخضع للتحقق التجريبي .ومن هذا المنطلق افترض كارل بوبر K. Poper معيارا آخر للتحقق من صدق النظرية، ألا وهو معيار التزييف . Falsification ويعني ذلك أن تكون النظرية العلمية قابلة للتكذيب (دون أن يكون التكذيب مطلقا، وكل ما يعني ذلك فقط أن لكل نظرية المجال الذي تصدق فيه). وهذا ما سيجعل الأنساق العلمية – في نظر بوبر – تخوض صراعا مريرا من أجل البقاء.(= انظر مثلا إلى الاختلاف الحاصل بين الهندسة الأقليدية، والهندسات اللاأقليدية .(ومع ظهور الميكروفيزياء، تغير مفهوم الواقع. حيث أصبح الواقع لا يعني معطى تجريبيا يوجد خارج الذات، وإنما أصبح مفهوما يتغير من الظواهر الماكروسكوبية إلى الظواهر الميكروسكوبية. فالفوتونات والإلكتونات أضحت تفقد كل فردية وتميز. فلا أحد يستطيع الجزم بأنها موجية أو جسمية: لأنه كلما ظهرت بمظهرها الموجي اختفى مظهرها الجسمي، والعكس صحيح. ومن ثمة تصدق النظرية الجسمية والموجية معا. هكذا أصبح – في اعتقاد باشلار – الاهتمام أكثر من ذي قبل بالفرضيات، فأصبحت الفيزياء أكثر فأكثر فرضية-استنباطية .بناء عليه، أمكن القول بأن التجربة – في صورتها التقليدية – أصبحت متجاوزة، وأصبح الواقع مفهوما عقليا يمكن تمثله بصور متعددة. إلا أن بعض الإبستيمولوجيين يتحفظون من هذا الاستنتاج، حيث يعتقد بوانكاريه .H

Poincré، أن المعيار الأساسي للنظرية هو معيار الملاءمة. ويفيد ذلك أن نتساءل أي النظريات تلائمنا أكثر؟ وسيقودنا ذلك – لا محالة – إلى ترجيح نظريات على حساب أخرى .وكتخريج عام، نستنتج، أنه مهما تعددت دلالات النظرية، فإن إشكالية تحديد علاقتها بالممارسة ستظل إشكالية قائمة. أما تحديد وظائفها فستظل عالقة بالوظائف الإبستيمولوجية التي تعرفها البيولوجيا والعلوم الإنسانية. وفيما يخص علاقة النظرية بالواقع، فهي قضية رهينة بتطور العقلية: فالعقلية الكلاسيكية لا تستطيع أن تتصور النظرية العلمية في غياب التجربة بمفهومها التقليدي. في حين أن العقلية المعاصرة، هي عقلية منفتحة تستطيع أن تحول التجربة المختبرية إلى تجربة ذهنية... ويجب التأكيد أخيرا على أن ربط النظرية بمعيار الملاءمة معناه السقوط في أحضان الفكر البرغمائي، وبالتالي رفض كثير من النظريات العلمية بدعوى أنها لا تلائمنا .

تعريف النظرية

تمثل " النظرية العلمية " أهمية بالغة في البحث العلمي بصفة عامة .و تتحدد على أساسها " هوية" أي علم من العلوم .فالنظرية هي التي تحدد موضوع العلم و تنظم عملياته و أدواره و اتجاهاته . و بذلك تختلف النظرية عن المنهج العلمي الذي يعتبرأساساً واحداً لكل العلوم الطبيعية والإنسانية مع إختلاف الإجراءات و الأدوات بإختلاف الظاهرة محل الدراسة . فعلى سبيل المثال تعد " الملاحظة " خطوة أساسية في كل بحث علمي ، طبيعي أو إنساني ، و لكن تختلف أدوات الملاحظة ، ففي الكيمياء يستعين الباحث ب " المجهر "، و في علم االاجتماع يستخدم " دليل أو كراسة الملاحظة " .

و يتفق كثير من العلماء و الدارسين على أن النظرية تمثل " نسقاً فكرياً متسقاً حول ظاهرة أو مجموعة من الظواهر المتجانسة . و تعرف بـأنها " تفسير لظاهرة معينة من خلال نسق إستنباطي"(تيماشيف : النظرية الاجتماعية : الطبيعة والنمو ، ترجمة محمد الجوهري و آخرون ، 1974م) و يتضمن النسق إطاراً تصورياً و مجموعة مفاهيم و قضايا نظرية توضح العلاقة بين الوقائع و تنظمها بشكل له معنى ، إضافة الى أنها ذات بعد إمبيريقي يستند الى الواقع و معطياته قابل للإختبار ،كما أنها تنبؤية تساعد على تفهم مستقبل الظواهر و إن كان من خلال التعميم . كما تعرف بأنها " عبارة عن مجموعة مترابطة من المفاهيم ،و التعريفات ، و القضايا التي تكون رؤية منظمة للظواهر عن طريق تحديدها للعلاقات بين المتغيرات بهدف تفسيرها و التنبؤ بها .. " .

و يستلزم بناء النظري وفق التعريفات السابقة توفرالمقومات الآتية

1) و جود إطار تصوري ، أو مجموعة من المفاهيم تتناول مفهوم النظرية .و تنقسم الى مفاهيم وصفية و أخرى علمية .

2) أن تحتوي النظرية على مجموعة من القضايا تبين كل قضية علاقة معينة بين مجموعة من المتغيرات .

3) أن ترتب القضايا التي تتناولها النظرية في نسق استنباطي يبدأ بالمقدمات و ينتهي بالتوصل الى النتائج . و أن تكون القضايا ذات إتساق منطقي ، بمعنى يمكن استنتاج كل قضية من القضية التي تسبقها .

4) أن تفسر النظرية الوقائع التي تشتمل عليها ، و تصبح النظرية مؤكدة و قوية كلما فسرت وقائع أكثر.

شروط النظرية :

حتى يتم وضع إطار معرفي للنظرية لا بد من توفر مجموعة من الشروط من أهمها

1- أن تكون مكونات النظرية واضحة و دقيقة ، محددة الألفاظ و المعاني و المضامين .

2- أن تعبر النظرية على ما تدل عليه بإيجاز يبين محتواها و أغراضها و أهداف كل جزء من أجزائها .

3- أن تشتمل النظرية على معظم الجوانب التي تكون تلك النظرية و تحللها و تفسرها قد الإمكان .

4- لابد أن تكون النظرية ذات موضوع و إطار تفسيري خاص بها بحيث لا تتداخل مع نظرية أخرى تتناول وتفسر نفس الموضوع و القضايا .

5- أن تستمد النظرية إطارها المرجعي و التفسيري من حقائق و ملاحظات واقعية يمكن إختبارها علمياً بشكل يثريها و يمنحها الخاصية العلمية .

6- من شروط النظرية الهامة قدرتها على التنبؤ ، بحيث لا تقف عند الوصف و التفسير إنما تتجاوزهما الى القدرة على التنبؤ .

وظائف النظرية :

يمكن إيجاز الوظائف التي تضطلع بها النظرية العلمية على النحو التالي :

1- يعد تحديد هوية العلم و موضوعاته الرئيسة و ميادينه من أبرز وظائف النظرية العلمية ، الذي يترتب عليه تأكيد و إظهار الدور المعرفي التراكمي ، وعليه يتحدد ما يجب دراسته ، و ما هي القضايا التي لم تدرس بعد إضافة الى ما تم التوصل إليه من نتائج .

2- تعتبر النظرية العلمية نقطة البدء في دراسة الظواهر الإجتماعية و الطبيعية على حدٍ سواء ، لأنها تضع للباحث الإطار التصوري لأبعاد و علاقات الموضوع الذي يقوم بدراسته ، و تحدد له المعطيات و كيفية تنظيمها و من ثم تصنيفها ، و العلاقات و الترابطات و التداخلات فيما بينها ، أي أن النظرية تضع للباحث الاجراءات العلمية التي سيتبعها عند القيام ببحثه .و تقدم النظرية عددا كبيراً من المفاهيم التي تثري العلوم . وذلك لأن كل " مفهوم " يتضمن خبرة إجتماعية و علمية مميزة ، إضافة الى أنه يعد تلخيصاً لكثير من الحقائق التي تكون النظرية .

3- من الوظائف الهامة للنظرية القيمة العلمية التي تمنحها للبحث فجمع البيانات بالإعتماد على نظرية تدعم المعطيات و تفسر النتائج أمراً ضرورياً حتى لا يعد البحث ناقصاً و قاصراً . و عليه فإن العلاقة الجدلية بين النظرية و البحث العلمي على قدر كبير من الأهمية يجب ان يراعيها الباحث الجاد عند إلقيام ببحثه .

4- تساعد المظرية على اتجاه الظاهرة مستقبلا ، فالتنبؤ يعني الانتقال من المعلوم من الحالات و الوقائع الى الحالات المشابهة أو المجهولة .

5- كما يمكن الإستفادة من النظريات العلمية في مجال التطبيق.

ما هي النظرية وما هي الفرضية؟

مراحل الاثبات العلمي ثلاثة مفاهيم في توضيح مراتب الاثبات العلمي وهي المشاهدة والفرضية والنظرية المرحلة الاولى لاثبات شئ ما علميا هي المشاهدة يجب ان تشاهد الشئ او تملك دليلا ماديا عليه ليس بالضرورة ان تراه رؤية العين. ثم تخضع مشاهدتك ودليك الملموس هذا للتساؤلات حتى تمرره الى الاختبار. الاختبار قد يكون احصائيا كما في البحوث الاجتماعية او قد يكون تجريبيا او قد يكون برهانا رياضيا. التجربة ايضا من الممكن ان تكون في الكيمياء او الفيزياء وقد تكون تجربة مباشرة على البشر وقد تكون تجربة بيولوجية على اعضاء الكائنات الحية.

وهنا بعد الاختبار قد ينجح ذلك او يفشل. ففي حال نجاح الاختبار تصبح الفرضية نظرية علمية اما في حال فشل الاختبار فتتجه الفرضية لمحاولة الاثبات مرة ثانية عبر التجارب او قد تلغى تماما.

المزيد من التجارب تعزز الفرضيات وتحولها الى نظريات.

من الامثلة على النظريات، النظرية الخلوية التي وضعت في القرن التاسع عشر وهي تفسر كل ما يتعلق بخلايانا الحية. ومنها ايضا النظرية الجزيئية في الكيمياء وكما نرى فإن ما اثبتته هذه النظريات يوما صار شيئا بديهيا بالنسبة الينا. اجسادنا تتكون من خلايا، وكل شئ في العالم يتكون من جزيئات. هذه امور بديهية بالنسبة الينا اليوم. انها لا تحتمل العبارة الخاطئة التي يرددها الناس (نظرية تحتمل الصواب وتحتمل الخطأ).

من النظريات ايضا نظرية العرض والطلب في الاقتصاد.

اذا فالنظريات يجب ان تكون كالقالب الذي يستوعب العالم/ الظاهرة/ الحالة ويفسر كل ما حولها. ولنقض النظرية يجب الاتيان بحالة لا يمكن للنظرية فيها ان تستوعب العالم/ الظاهرة/ الحالة. عندئذ نحتاج لنظرية جديدة في تفسير ما يجري وهذه النظرية الجديدة ستمر بالادوار نفسها كالمشاهدة والاختبار والبرهان.

معتبي النظرية في علم الاجتماع

يعرف (روبرت ميرتون) النظرية الاجتماعية في علم الاجتماع بأنها مجموعة من التصورات المترابطة منطقياً ، تلك التصورات المحددة والمتواضعة وليست الشاملة المتضمنة كل شيء ، وتأسيساً على هذا التعريف يصعب أن نعتبر المذاهب الفلسفية الكبرى نظريات علمية بالمعنى والمفهوم الذي حدده ميرتون ، فمفهوم الدور الاجتماعي أو مفهوم البناء والوظيفة في علم الاجتماع يمكن اعتبارها من نظريات علم الاجتماع المحددة ، ومهما كان موقف ميرتون ، فإن الغالبية العظمى من علماء الاجتماع تعرّف وتحدد النظرية الاجتماعية بما تدرسه من مواضيع ، فهي إذن نظرية للمجتمع بأوسع معانيه ، وبكل ما في المجتمع من ظواهر ونظم وأنساق ومؤسسات ، وما يحدث من تفاعل وحركة وديناميكية في شبكة هذه العلاقات وهياكل هذه المؤسسات ، وهي – أي النظرية الاجتماعية – عبارة عن علاقات تصورية بين مجموعة من المتغيرات يتم في ضوئها تفسير فئة من الاضطرادات التي يمكن تحديدها بشكل تجريبي ، فالنظرية إذن هي تصور أو بناء منطقي علمي يفسر ظاهرة أو ظواهر اجتماعية متعددة ، ويحدد هذا التصور المنطقي الظروف والعوامل التي إذا تكررت أو ظهرت أمكن ظهور وتكرار الظاهرة من جديد .

ويحدد (كوهن) الأنماط الرئيسية للنظرية الاجتماعية بثلاثة أنواع هي:

- **النوع الأول** : وهو ما يُعرف بالنظرية التحليلية ، وهي تماثل النظريات المنطقية والرياضية تلك التي لا تحدد شيئا يتعلق بالعالم الواقعي ولكنها تتشكل من مجموعة من القضايا البديهية التي تكتسب صدقها من خلال التعريف والتي يمكن اشتقاق قضايا أخرى منها .
- **النوع الثاني :** وهو ما يعرف بالنظريات المعيارية ، وهي التي تحدد مجموعة من الحالات المثالية التي يرغب الإنسان في تحقيقها ، ويتعلق هذا النوع من النظريات بالمسائل الأخلاقية والجمالية ، مثل نظرية أفلاطون في الفضيلة

بأنها التوازن والانسجام بين قوى النفس الثلاث ، القوى الغضبية والقوى الشهوانية والقوى العقلية الفكرية .

- **النوع الثالث** : وهو ما يُعرف بالنظريات العلمية وهي في شكلها النهائي عبارة عن صياغة شاملة وامبيريقية تؤسس علاقة بين نموذجين أو أكثر من الوقائع ، وفي أكثر مستوياتها بساطة نجدها تتخذ الشكل الذي يتمثل في أنه حينما تقع (أ (فإن (ب) لابد أن تقع ، وعادة ما تتسم النظرية العلمية بالشمول والعمومية وقدرتها على التنبؤ.

ومن الواضح أن تكون النظرية ذات بناء منطقي إلى جانب أن العلاقات المنطقية ذاتها عادة ما تكون علاقات بين مفهومين أو أكثر يشيران إلى متغيرات واقعية محددة ، ومهما كان البناء المنطقي للنظرية الاجتماعية على وجه الخصوص مجرداً وبعيداً عن المشاهدات التجريبية ، فإنه يحمل في طياته مضموناً أيديولوجياً وتفضيلات معيارية تكمن وراء قضاياه ومتغيراته ، فيكفي أن نقول إن المجتمع يتكون من طبقات فهذا ضمنياً يعني نظرة تراتبية للناس ، ويعني وضع بعضهم في طبقات عليا وبعضهم الآخر في طبقات أدنى، إن هذه النظرية المعيارية والأيديولوجية الكامنة في النظرية الاجتماعية هي التي تجعل النظرية الاجتماعية أقل علمية من النظرية العلمية في الكيمياء أو الطبيعة أو الجيولوجيا مثلاً ، وعلى ذلك فالنظرية الاجتماعية دائماً تحمل معاني التحيز بشكل أو بآخر ، ويتضح ذلك جلياً في معظم نظريات الأنثروبولوجيا التي ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كما يتضح هذا التحيز أيضاً في معظم نظريات علم الاجتماع حالياً مثل التحيز الذي تتضمنه النظرية البنائية الوظيفية ، أو نظرية الصراع ، أو نظرية تبادل المنافع الاجتماعية ، ويصعب جداً التخلص من هذا التحيز في النظرية الاجتماعية لسبب بسيط هو أنها تنظر للإنسان كمادة أو عنصر أو متغير ، والإنسان غير المادة أو عناصر الكيمياء ، فهو – أي الإنسان – متحيز بطبعه لثقافة معينة أو عِرق معيّن ، كما أنه مكوّن من مشاعر وعواطف ووجدانات وآمال ،

وهذه يصعب وضعها في قوالب أو معادلات رياضية أو إحصائية أو قوانين اجتماعية حتمية ، وحتى وإن وُضعت وهذا ما حدث بالفعل فإنها تخلو من العلمية والقانون العلمي المعتاد في عالم المادة ، وإذا ما سرنا في هذا الاتجاه فإن النظرية الاجتماعية هي ضرب من الفلسفة أو نوع من الايديولوجيا الاجتماعية التي يصف بواسطتها الباحث المجتمع وتطوره وحركته وسلوكه ، ولا يمكن أن ترقى – أي النظرية الاجتماعية – إلى مستوى النظريات العلمية في الكيمياء أو الطبيعة أو حركة المادة ، فالنظرية الاجتماعية فلسفة ذاتية لرؤية الظواهر الاجتماعية من منظور معين.

الفصل الثاني